نحن والمستشرقون

الأنانية القومية وتحرير الفكر

بقلم الدكتور حسين الهراوى

إذا قدر لك أن تطلع على عدة كتب تاريخية أو أدبية مما يطبع فى مصر فى العهد الحاضر مثلا، تجد أن جميع هذه الكتب (إلا القليل منها) تنقل عن بعضها، فكأن الواحد منها مرآة للأخرى، من حيث الأسلوب والمعلومات والترتيب والتبويب، وترى أن الموضوعات المبتكرة قليلة لا تشفى غلة، ولا تروى صادياً؛ وإذا اتجهت إلى دار الكتب المصرية أو دور الكتب الكبرى، وجدت هناك كتباً وبحوثاً لم تمسسها يد، ولم يعرف ما فيها إنسان، وكل قيمتها الأدبية والتاريخية لا تتجاوز أنها مخطوطة فى القرون الأولى الاسلامية، أما محتوياتها وما فيها من كنوز فنية علمية فليس للباحثين نصيب فى هذا الشأن.

ولذلك نرى أن التاريخ الاسلامى والعبقرية المصرية مازالتا فى موقفهما الأول منذ النهضة المصرية التى شملت جميع مرافق الحياة الأدبية والاجتماعية الآن، غير أن هذه النهضة الفكرية لم تتجاوز فى نظرنا حدود النقل والترجمة، أما الباحث المبتكر، فهى قليلة العدد إلى حد يستدعى الدهشة والعجب.

فهل السبب راجع إلى أن جمهور القراء لا يشجع على البحث ونشر ما طوته جدران دور الكتب من كنوز هى أشبه شىء بكنوز آثار قدماء المصريين التى لم تر الضوء إلى يومنا هذا؟ أم أن السبب أن هواية البحث الخالص ليست متغلغلة فى النفوس؟ أم أن الأفكار لم تتجه إلى هذه الناحية؟

ليكن السبب مهما كان؛ فاننا لا زلنا مقصرين فى هذه الناحية، وهى ناحية البحث المبتكر او دراسة الكتب المخطوطة، لنخرج منها ذلك العلم المقبور والنور المستور.

ولكن هناك فئة خاصة فى أوربا من القوم الذين يحترفون تدريس اللغات الشرقية للطلبة الأوربيين ويحسنون الألسنة الشرقية، أطلقوا على أنفسهم نعت المستشرقين، تقدموا عنا فى مثل هذه المباحث، ونشروا كتباً قيمة، كان النسيان أسدل عليها ستاراً كثيفاً من الخفاء، فبازوا

بفضل التقدم ، وا كتسبوا شهرة أدبية واسعة ، وزاد فى قيمتها نوع من (البروبوجاندة) والدعاية الغريبة ، فأخذ الناس يظنون أن هؤلاء هم أئمة اللغة والأدب ، وأقبل الشرقيون على دراسة مباحثهم ، وقد سمعنا من نفس المصريين من يقول: إن من المستشرقين من يعرفون اللغة العربية أكثر منا ، ويفهمون فى ديننا أكثر من كثير منا .

والحق أقول : إننى كنت أسمع هذه الآراء والمناقشات ، وأنا لا أبين رأياً ، ولا أنحاز لجانب ، حتى قدر لى أن أبحث بعض مواضيع تاريخية أو اجتماعية أو دينية ، فكنت أعثر فجأة على آراء المستشرقين فى الشرق والاسلام ، فتعترينى هزة الألم ، إما لخطأ فاضح ، أو عدم فهم ، أو تعصب فيما يكتبه المستشرقون عنا ؛ ولذلك عنيت بقليل من الجهد أن أدرس أثر هؤلاء المستشرقين .

فالمستشرقون كلهم ممن يكونون أساتذة اللغات الشرقية أو العربية مثلا للطلبة الأوربيين ، وهؤلاء الطلبة هم الذين يتعلمون هذه اللغات ، تمهيداً لتوظيفهم فى الأقطار العربية الرازحة تحت نير الاستعمار الأوربى ، كما أن المستشرقين يؤلفون كتباً لرواد الشرق من الأوربيين .

ومهنة كهذه — كما ترى — لها الصبغة الاستعمارية فى أوضح شكل وأنصع مظهر ، لجديرة بأن نتيقظ لما ألف فيها وما كتب ، ولذلك لا نخطىء أن نستنتج أن الغاية من وراء هذا العلم هى المادة والاستعمار ، وتقبيح الشرق وعاداته ومظاهره .

لذلك فهمت لماذا تطعن الكتب الاجتماعية الأوربية التى تبحث فى مسائل الزواج وتعدد الزوجات فى الدين الاسلامى طعناً جارحا خارجا عن حد المعقول ، حتى لو فرضنا أن قائلها متعصب ما برأناه من اختراع أحط أنواع التفكير : فمثلا — فى كتاب (مرشال) عن الزواج يقول: إن الحجاب منتشر فى مصر إلى درجة أن الأم لا يسمح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سن الرابعة عشر .

ويقول: إن الفلاحة المصرية قد تعرى كل جسمها أمام الرجال ، أما وجهها فلا يراه إنسان .

وقرأت له فى كتاب آخر وصفا للنبى يمتعنى الأدب عن ذكره أو ترجمته .

ولماذا أذهب بك بعيداً فى بحث كتب ومواضيع قد يكون القارىء بعيدا عنها ؟ إن أشهر المستشرقين رجل يقال له (مرجوليوث) كان فى مصر منذ بضع سنين ، فهذا الرجل له مؤلفات كثيرة عن الاسلام كلها طعن جارح ، وفكر خاطىء ، وتعصب ممقوت ، فهو يتشكك فى النبى نسباً ، أبا وأما ، ثم يتشكك فى كل ناحية من نواحى الدين : إما بالطعن الجارح ، أو الغمز واللمز .

فهذه الأمثلة عن جماعة المستشرقين فى تأليفهم ، تبين لك أنهم إذا كانوا حسنى النية يراعون بيئتهم ويتلمسون رواج بضاعتهم قبل أن يعنوا بالحقائق ، ولذلك كانوا بعيدى المدى عن تفهم روح العربية أو الكتابة عن الموضوعات الشرقية بنفس الروح التى يكتبون بها ما يختص ببلادهم .

ولما كان الشرق يرزح كثيرا تحت نير الاستعمار ، وكانت التربية الاستعمارية تتجه بالفكر

الشرق إلى أن يكون عبداً للفكر الغربى ، فترى فئة المتعلمين منا ينظرون إلى الغرب نظرة الاكبار والاعظام، مستسلمين لآرائه استسلاماً من غير قيد أو شرط، ونشأ عن ذلك أن نفوسهم تشربت التشكيك فى أوطانهم وعقائدهم وأخلاقهم، فأخذنا نرى طغياناً هائلا جارفاً من الأفكار الغربية يستأثر بالفكر الشرقى ، والروح الشرقى ، والعائلة والوطنية الشرقية .

أما أثر استعباد الفكر الشرقى فتجده واضحاً فى المباحث الاجتماعية الشرقية ؛ فترى ـ مثلا ـ من يبحثون فى الأدب الشرقى يستشهدون بمستشرق، وهذا المستشرق ليس له فضل غير البحث فى الكتب العربية مثل التى فى متناول أيدينا، فلماذا لا نرجع إلى المنهل الذى ورد منه، ونستنتج منه بقدر استطاعتنا ؟

وأما فى الاجتماعيات الشرقية فقد طغى علينا الشىء الكثير من فتنة الغرب ، فترى قصصنا الاجتماعية وفن الروايات عندنا مترجماً عن اللغات الأجنبية، لا يخرج عن: موضوع خيانة الأزواج، وحب العذارى ، وازنا ، وما إليه من أنواع مغريات القراءة فى الشباب ، مما يؤثر فى أخلاقنا وقوميتنا؛ وقد خرج السفور إلى أبشع مظاهر المدنية الغربية من المراقص وغيرها، مما يشكو منه الغربيون أنفسهم، ومما زاد نسبة الطلاق ببلادهم، وأكثر عندنا الحوادث التناسلية والنسائية.

وأما الأثر فى العائلة المصرية فانك تراه واضحاً فى انتشار الزواج بالأجنبيات اللاتى لسن فى مستوى رجالنا المادى والاجتماعى، وترى أن أكبر خطر لشاب منا ، أن يتزوج بأجنبية ، مهما كان نوعها، تتأخراً وتيها على أقرانه .

هذه كلها أثر من آثار الاستعباد الفكرى الذى أدخله الغرب إلى الشرق، وأما فى الغرب فلا زالت النظرة إلينا هى تلك النظرة التى يصورها المستشرقون ، فتجد الشاب المصرى فى البلاد الأجنبية ككل شرقى يطلق عليه الجنس الملون (أى ذا اللون الأسمر) ويسمع عن نفسه وعن بلاده ما لا يخطر على قلب إنسان .

كل ماذكرنا هو الموجة الهائلة التى اكتسح الغرب بها أفكار الشرقيين، ولذلك وجب أن تصادمها موجة أخرى من الشرق، هذه الموجة الأخرى هى الأنانية القومية فى الأدب والاجتماع والصناعة والاعتزاز بالنفس وتحرير الفكر الشرقى من أثر هذا التخدير الطويل الأمد ، فاننا نزعم أن الفكر الشرقى لا يقل عن الغربى ؛ ولكن ينقصه فقط تلك الأنانية القومية فى الأخلاق والعادات والاداب ؛ وليس من وسيلة لادراك ذلك إلا بالأنانية الأدبية والتاريخية فى التأليف والنشر .

والذى نراه أن أدبنا الحى لا ينهض إلا باستقلال الفكر والأنانية القومية والوطنية ، فليس العلم احتكاراً، ولعمرى إن مصر اليوم لاقل فى تربية شبيبتها عن أوربا، فلدينا من يتقنون

الفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها أكثر مما عند الغربيين، من الذين يتقنون اللغات الشرقية، إذن فليكن لدينا فئة تدعو الناس إلى طرق التعليم القومى المستقل، كما فعل المستشرقون بعلوم العرب وآدابهم وكتبهم.

ولكن خطأنا الفاضح أننا نعتمد على الغرب حتى فيما يخصنا من التاريخ القومى، وما يخص بلادنا من أدب واجتماع فنستمد تاريخ قدماء المصريين من الكتب الافرنجية، بينما كتب المرحوم أحمد باشا كمال الخطية لازالت رهينة المكاتب والدواليب؛ وتتأثر تاريخ محمد على باشا والثورة العرابية فى كتب أجنبية، ولذلك كانت الأغلاط التاريخية فاشية فى كتبنا مما ستره عنا الفرنج.

أعطيك دليلا واحداً أستطيع أن أعززه بألف مثله:

أنت دائما تقرأ أن مصر فى عهد المغفور له إسماعيل باشا، كانت امبراطورية وغزت الحبشة؛ ولكنك لاتعلم من هذه الغزوة شيئاً، فاذا رجعت إلى مذكرات عرابى عنها علمت أن إسماعيل باشا كان موافقاً إلى نجاحها فبعث إليها بنجله، ولكن القيادة كانت لمرتزقة الأمريكان الذين لايعرفون شيئاً فى فنون الحرب، فباعوا الجيش المصرى للنجاشى بالمال، واستولوا على المال الذى خصصه إسماعيل باشا لنجاح الحملة.

وتستطيع إذا قارنت كتب التاريخ العربى والقومى أن تعرف مقدار مابينهما من تفاوت فى أثر الروح القومية، مما يحجبه عنك فى الكتب الأجنبية أثر الاستعمار والمنفعة، واستعباد الفكر الشرقى.

وإذا نظرت إلى القطر المصرى خاصة لوجدته قطراً دولياً، فى لغته ونزعته، فالفرنسية والانجليزية والألمانية وكل لغة تقريباً متغلغلة فى البيوت والتجارة، خصوصاً فى الطبقات الراقية؛ وإذا قارنت ذلك بأصغر الدول الأوربية كاليونان وغيرها، وجدت أن مصر لاتقل عنها مدنية، وتزيد عليها ثروة وتعليماً؛ ولكنك تجد السر كل السر فى الأنانية القومية وتحرير الفكر.

فنحن هنا نفكر تفكيراً متشعباً، وليس مصوباً للفائدة؛ ومجهودنا الأدبى ضائع لتعدد اتجاهاته؛ ولذلك تجد قوميتنا مرقعة كالثوب البالى، وأدبنا الكتابى الحى، كالطلقات الطائشة التى ليس لها هدف ولا مرمى.

وليس فى رأينا من وسيلة للنهضة الحقة إلا تركيز اتجاه الفكر بعد تحريره إلى الأنانية القومية والشعور الذاتى.

الدكتور

حسين الهراوى